

حقل الياسمين

(حكاية من مجموعة عوالم صغيرة)

في قديم الزمان، ولا أحد يعلمُ لماذا تحدثتُ كلُّ الحكاياتِ في قديم الزمان، كان لرجلٍ حقلٌ كبيرٌ يزرعُ فيه القمحَ والشعيرَ والخضرواتِ والفواكةَ ثم يبيعُها ويُعيّلُ أسرتهُ منها. وكان له ابنتان، إحداهما في الخامسة عشرة والأخرى في العاشرة. كان يأخذُهُما معه إلى الحقلِ لتساعدها ولتتعلمَا كيفَ تحافظان عليه عندما تراثنه من بعده. الكبرى كانت تُراقبُ يديه الغليظتين وهما تنبشان في الترابِ لتستخرجا منه الحصى وكلَّ ما هو ضارٌّ بالزرع، أو وهما تَبْدُران البنور في الأخاديدِ الصغيرةِ المُعدَّةِ لها. وكانت تُراقبُهُ وهو يُشرفُ على مُزارعته ويوجِّهُهم، ثم وهو يمسخُ العرقَ عن جبينه بينما تستعرضُ عيناهُ بسرورٍ ما أنجزتهُ يداها، وتراقبُهُ إذ يصفُّ الفؤوسَ والمجارفَ وباقي أدواته بعنايةٍ

إلى جانبِ جدارِ المخزنِ القابعِ في رُكنٍ من أركانِ مزرعتهِ
المُتراميةِ الأطرافِ عندما ينتهي من العملِ.

أما الصغرى فكانت تملُّ من ملاحظتهِ، وكثيراً ما تهرُبُ إلى
شجيرةِ ياسمينٍ بعيدةٍ لتجلسَ تحتها وتُغني بعيداً عن كلِّ شيءٍ.
تغني أغنياتٍ جميلةٍ تبتدئُها في تلكَ اللحظاتِ لتذهبَ بها إلى
عوالمٍ أخرى نائيةٍ وخلابةٍ. وتتنهَّدُ أحياناً عندما تنتهي إحدى
الأغنياتِ وتتمنى لو صاحبتِ أغنياتها موسيقى جميلةٍ تُشبهها في
الرِّقَّةِ والجمالِ. ثم ما تلبثُ أن تعودَ إلى الغناءِ بصوتٍ لا يهملها
أن يروقَ لأحدٍ سِواها لأنَّها لا تغني إلا حياتها الخاصةِ
وأحاسيسها وأحلامها. كان حُلْمُها أن يُصبحَ الحقلُ كلُّه شجيراتِ
ياسمينٍ تملأُ الفضاءَ بعطرها. ماذا لو كان الحقلُ كلُّه أخضرَ
مرقشاً ببياضِ الياسمينِ ومعطراً بشذاهِ الفواحِ. ماذا لو كانت
هناك تلالٌ ووديانٌ يغطيها الياسمينِ. ماذا لو كان الحقلُ جنَّةً
بيضاءَ عطرةً يلهو فيها أطفالها كالملائكةِ عندما يأتونَ إلى الدنيا؟

ولكنها لا تستطيع أن تُلحَّ على أبيها أكثرَ مما فعلت. وكان هو
دائماً يقول لها إنَّه لا يستطيع هدرَ الأرضِ في زراعةٍ محصولٍ
لا يستطيع الاستفادة منه كما يستفيد من المحاصيل الأخرى ولا
يُحب أن يُلمي على الطبيعة كلَّ ما يريد. وفي إحدى المرات،
أجلسها إليه تحت الياسمينية وأخذ يروي لها قصتهُ بصوتهِ
المشحونِ أبوةً وحناناً وجهداً وعرقا:

- لا أعلم كيف أنت هذه الشجيرة، لم أزرعها بنفسي. ولكني أخذت أسقيها وأرعاها كما أرعى باقي النباتات لأنني أعتقد أن الأشياء لا تحدث بالصدفة، ولأنني أحببها، وازدادت حبي لها عندما رأيته تُحبينها يا عزيزتي. لذلك ستكون لكِ إلى الأبد لأنني لن أقتلها يوماً. ولكني حتماً لا أستطيع أن أزرع غيرها. ماذا أفعل بالياسمين؟ تكفيننا منها واحدة.

أما الكبرى فكان لديها أيضاً ما تُلح عليه. كانت تريد أن يتخلص والدها من جميع المحاصيل التي لا تجني لهم الكثير من الربح ويقصر الجهد على المحاصيل المربحة كالحبوب. كانت تجلس إلى أبيها وهو يستريح تحت شجرة ما متأماً حقله ومستمتعاً بالنسمات اللطيفة وبالصمت الذي لا يقطعهُ إلا زقزقة العصافير هنا وهناك وتطلب إليه أن يتخيل حياتهم بعد أن يصبحوا أثرياء إذا ما تخلصوا من كل مالا يجني الكثير من المال من الشجر. أو مالا يجنى المال أصلاً وإنما يقف بلا فائدة إلا أنه يصنع ظلالاً هنا وهناك. ولكنه كان أيضاً يبتسم ابتسامته الأبوية ويحاول صرف نظرها عن فكرتها التي ستقضي على مساحات من الأشجار والنباتات التي يحبها دون أن يفكر في ضالة ما تُقدّمه له من مال. كان يقول لها وهو يستند إلى الشجرة:

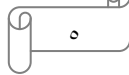
- قليلٌ من كل شيء.. هكذا الحياة، وهكذا أحبُّ حقلي..

وعندما تتحدثُ إليه عن ما يجنيه غيره من المزارعين كان يقول لها وهو يرنو ببصره إلى الأشجار البعيدة:
- إننا لا ننافس أحداً يا حبيبتي. إننا فقط نعملُ ما نُحب.
ونرضى بما يأتينا.

وبينما كانت الأخت الكبرى تلاحق والدها وتستمتع برؤيته وهو يعمل وبتقليده فيما يعمل، كانت الصغرى تُغني أغانيها الجميلة التي تستوحياها من شذا الياسمين ومن أحلامها التي تحوكمها تحت تلك الشجرة. وفي نهاية اليوم كانت تجلس مع أختها وأبيها لتناول الطعام. كان الأب والأخت يمتدحان الطعام المعدّ مما يُنتجُه الحقلُ بينما كانت هي تصنع في خيالها قصوراً من الياسمين.

ومرت الأيام والسنون وكبرت البنتان فأصبحت الصغرى في الخامسة عشرة وظلت تُغني أغانيها البيضاء، والكبرى في العشرين وازداد عشقها للعمل في الحقل. ومات والدهما فأصبح الحقل ملكاً لهما. فكانت الصغرى تقضى أوقاتاً طويلةً مع ذكرى والدها تحت شجرة الياسمين بينما الكبرى تُبَدِّدُ حزنها في المزيد من العملِ الدؤوب. وكلّما نظرت إلى شجيرة الياسمين شعرت أن تلك البقعة التي تشغلها مالا مهوراً، وكلّما رأتها أختها تنظرُ إلى الشجرة أرسلت إليها نظرةً مُحدّرة.

وبعد أشهر من وفاة الوالدِ قالت الابنة الكبرى لأختها:



- أعلم أنّك لا تحبين العملَ في الحقول، فهل تبيعينني نصيبك؟

- لا. لن أفرطَ في المكان الذي ترعرعتُ فيه وشاخ فيه أبي.
- ولكنك لا تُجيدين إلا الغناء.. لا أريدُ أن أعيبكِ ولكني أعلمُ أنّ العملَ في الحقل لا يستهويكِ مُطلقاً. ومن ثمّ فلنَ تعملي فيه أبداً كما يجب، وسنتشاجرُ كثيراً من أجل ذلك. وأنا لا أريدُ أن نتباغضَ لأيّ سببٍ من الأسباب.

هزّت الصُغرى رأسها وتنهدت وعيناها تنظران إلى الأفق البعيد:

- لا، لقد نشأتُ وأنا أعني أن الحقل شيءٌ لنا، أي لي أيضاً.
وقطعاً سأشعرُ بالضيق إذا أصبحتُ ولا حقلٌ لديّ أهرع إليه متى شئتُ.

- ولكنّ حقلَ أختكِ مثلُ حقلِك تماماً. لن تشعري بالفرق إذ لن يمنعكِ أحدٌ من الذهابِ إليه وقتما شئتِ.

- أعلم ذلك ولكنّ شعوري بما هو مُلكي ليس كشعوري بما هو ملكُ أختي. لا أستطيعُ أن أفهمكِ ما يجولُ بداخلي ولكني لا أريدُ أن أشعرَ بمزيدٍ من اليئس. الحقل هو ملاذي بعدَ أبي.

مسحت الابنة الكبرى دموعين انحدرتا على خديها وقالت:

- حسناً يا عزيزتي، لن أحرّمكِ من ملاذكِ.

بعدها بأيام فاجأت الأخت الكبرى أختها باقتراح جديد:

- ما رأيك لو قسّمنا الحقل إلى حقلين متساويين لتعمل كلٌّ منّا في حقلها كما تحبُّ دون أن تضايقها الأخرى؟ إنَّني فقط أخشى أن نتشاجر لأنِّي أحبُّ العمل، أما أنتِ فلا تحبِّين إلا الغناء... بعيداً.

وافقت الصغرى على الفور وطلبت أن يكونَ قِسْمُها الجزء الذي به شجيرةُ الياسمين، ورضيت الكبرى.

صنعت الأختُ الصغرى سوراً عالياً بين الحقلين لكي تهربَ من نصائح أختها واقتسمتا عمالَ الحقل وأخذت كلُّ منهما تعمل في حقلها كما تُحبُّ. أزالَت الكبرى كثيراً من النباتات وزرعت مكانها المزيدَ من القمح وحظيت بمحصولٍ كبير. وأزالَت الصغرى كثيراً من المحاصيل وزرعت مكانها ياسمين.

ومرَّ عامٌ ورأت الكبرى بمتابعةٍ بيع المحاصيل التي يُنتجها الحقلُ كيف أن زراعةَ الحبوبِ مُربحةٌ جداً كما كانت تعتقد، فأخذت تُزيل المزيدَ من المحاصيل وتزرعُ مكانها قمحاً، حتى أصبح حقلها كلُّه حقلَ قمح. واشترت بريرةً المزيدَ من الأراضي التي كانت ملاصقةً لحقلها وزرعت المزيدَ والمزيدَ من القمح حتى أصبحت أكبرَ تاجرةٍ قمحٍ في البلاد، وأصبحت من أثرى الأثرياء في سنين قليلة.

أما الصغرى فقد أخذت تُزيلُ المزيدَ من المحاصيل الأخرى شيئاً فشيئاً وتضعُ مكانها ياسميناً حتى أضحي حقلها غابةً من

الياسمين. ثم صنعت مُرتفعاتٍ فأصبح الحقلُ تلالاً وودياناً ملأى
بالياسمين كما كانت تتمنى. ولم تمض خمسُ سنواتٍ حتى أصبح
المكانُ جنةً سحريةً يجتذبُ عطرها الناسَ من بعيدٍ ليصطفوا
عند أسوارها ويشاهدوا هذه الغابة البيضاء. ولكنَّ من يشتري
الياسمين منهم قليل، لذلك فهي لم تُصبح ثريةً مثل أختها بل
أصبحت لا تملكُ - غير الحقل - إلا ما يجعلها تعيش عيشةً بسيطةً
الحال. فالذين يأتون ليطلُّوا على الحقل ويشهقون إعجاباً بسحر
غابات الياسمين ما يلبثون أن يذهب كلُّ إلى شأنه دون أن يشتري
شيئاً منه. ولكن كان يحلو لها أن ترى كيف أن حلمها المُحقَّق
يحبسُ أنفاسَ الناسَ دهشةً.

وفي الأمسياتِ كانت تمشي بين تلالِ الياسمين ووديانه
وتشعر وكأنها تسير درباً حالماً في عالمٍ سحريٍّ، ثم تجلس
مستندةً إلى إحدى الشجيرات وتحلم بأشياءٍ أخرى كثيرة، وتغني
أحلامها على موسيقى الياسمين. كانت تشعر حقاً بما يُشبه
الموسيقى ينبعث مع عطر الياسمين ولا يعنيه إن كان الآخرون
يصدقونها أم لا.

وفي أحد الأيام فوجئت بأنَّ موسيقى شذا الياسمين أصبحت
مسموعةً حقاً حتى أنها أيقنت أن الجميع سيسمعونها إذ أصبح لها
وجودٌ حقيقيٌّ ككلِّ الأصوات التي تُسمع. أرهفت السمع
وأغمضت عينيها وأخذت تستمع إلى نغم الياسمين الذي يأتيها مع

عبيره، إنه لا يأتيها من داخلها كما كان يفعل بل يأتي مسموعاً محسوساً مُتخللاً حفيف أوراق الشجر.. لقد أصبح له وجودٌ واقعيٌّ كزفزة العصافير وحفيف أوراق الشجر وهزيم الرياح البعيدة زمن الخريف. ولكن.. هل هذا صوت الياسمين حقاً؟ كيف؟ هل حب الياسمين يجعل له أنغاماً شجيةً لا تكفي بسكنى الخيال حتى تخرج من حيزه إلى حيز الواقع؟

هبت من مكانها وأخذت تقترب من الزهيرات لتري إن كان الصوت يخرج منها حقاً ولكنها وجدتها صامتة. كانت هي الأخرى تُصغي معها للأنغام. أخذت تتلفت حولها في ذهول وتسير في طرقٍ مختلفة بين أشجار الياسمين والأنغام تأتي بلا توقف، حتى لاحظت أخيراً أن الصوت يخفت عندما تبتعد عن السور ويقوى عندما تقترب منه..

أخذت تمشي بحذرٍ نحو السور إلى أن وصلتته.. أزاحت الأغصان جانباً وأخذت تطل من فجوة بين قطعتي خشب من أخشاب السور. هنالك رأت شاباً وسيماً يعزف الناي. توقفت عندما شعر بوجودها، وأخذ يحدث في فجوة السور التي كانت تنظر إليه منها. وعندما التقت أعينهما سألتها من يكون فأخبرها أنه رجل يحب العزف في الأمسيات، وقد جذبته شدا الياسمين من بعيد فأصبح يحب العزف عند سورها. فقالت له وهي تنظر إليه

من فجوة السور: "أنا أيضاً أحبُّ عزفَكَ عند سوري". وبما انهما يشتركان في هذا الجنون فقد تزوّجا بعدها بأسبوع.

ومرت السُنون وكانت الأخت الكبرى في نهايةِ كلِّ موسمٍ تحتفل بزيادةِ محصولها حتى أصبح قَمْحُها مَصْدَرَ الخبزِ الوحيدِ في البلاد. وكانت سعيدةً بذلك، خاصةً وأن الخبزَ يتحوَّلُ إلى طعامٍ وفيرٍ وملابسٍ فاخرةٍ وحُلِيِّ نفيسةٍ لها ولأسرتها، أما ياسمين أختها فلم يكن يتحوَّلُ إلا إلى معيشةٍ بسيطةٍ الحال وملابسٍ متواضعةٍ بعد أن يستوفي أجورَ عمّالِهِ. وكانت الأخت الكبرى تتحسّرُ عندما ترى حالَ أختها وأبنائها وتتصحها بأن تزرع الحبوبَ مثلها لأنَّ الياسمين لا يُباعُ كالحبوب، ولكنَّ الصغرى كانت على وفائها للياسمين الذي لا تُرضى لهُ بديلاً.

- ازرعني القمح مثلي. كلُّ التجار يُريدون القمح لأنَّ كلَّ الناس يريدون الخُبز. الخبزُ هو الشيء الذي لا يستغني عنه غنيٌّ ولا فقير. أما الياسمين فمن يريده؟
- هناك دائماً من يريده. لا يشتري الناسُ عقودَ الياسمين كلَّ يومٍ ولكنَّهم يشترونها بين الفينةِ والفينةِ...
- كم من الناس؟ ومن هم؟ الأغنياءُ يُفضّلون الأزهارَ الأعلى ثمناً، والفقراءُ لن يشتروا إلا ما يأكلونه. ولو استطاعوا الاستغناء عن كلِّ الأطعمةِ فهم لن يستغنوا عن الخبز.
- ولكن..

- ولكن ماذا يا عزيزتي؟ تمسّكي بالخبز يُكُنْ جميع من على الأرض زبائنك. لو كنتِ امرأةً فقيرةً لا تملُكين إلا دراهمَ معدودةً تكفي لخبزةٍ أو لعقدِ ياسمين ألن تشتري الخبزة؟
- ولكنني لا أريد نقودَ الفقراء، لا أريد أن أتكسبَ منهم.. ولا حتى من غيرهم.. إنني أريد أن أفعل ما أحب، ولا أشعر أنني بحاجةٍ إلى المزيدِ من المال. الياسمين يوفّرُ لي ما أحتاجه لأعيش.
- ربما لا تشعرين أنك بحاجةٍ إلى المزيد ولكن الياسمين لا يُتيح لكِ ولأبنائك أن تعيشوا عيشةً مرفهةً. ثم هل يشتري الناس كلَّ العقود التي تُعرضونها للبيع؟ لا بدّ أنّ كثيراً منها يذبلُ دون أن يشتريه أحد.
- نعم. يحدث ذلك دائماً. لهذا فكّرت أن أصنع عِطراً من أزهار الياسمين وأضعه في زجاجاتٍ صغيرةٍ أعرضها للبيع. عندئذٍ لن أخسر الياسمين لأن العطر لا يفسد بسرعة.
- ولكني عندها سأسألكِ ثانيةً، من الذي سيشتري العطر؟ لن يشتريه إلا من يستطيع إنفاقَ المالِ على ما لا يحتاجه ليعيش، وليس في بلدنا الكثيرُ من هؤلاء. أما الخبز فكلُّ الناس مُجبرونَ على شرائه وإلا ماتوا جوعاً.

صممت الأخت الصغرى لأنها لم تكن تحبُّ طريقةَ أختها في التفكير ولم تكن تريد أن تتخلّى عن حقل الياسمين الذي يشاركها حبهَ أولئك الذي يأتون من بعيدٍ لتأمله من فوق السور.

ومرت الأيام وأصبحت الأخت الصغرى تبيع عطرَ الياسمين وتحسّن وضعها قليلاً إلا أنّه كان لا شيءَ بالمقارنة بحالِ أختها. وفي أحدِ الأيام لاحظت الصغرى البوّنَ الشاسعَ الذي بين أبنائها وبين أبناء أختها. فكانَ أبناءُها أبناءُ أناسٍ بالكادِ متوسطي الحال وكانَ أبناءُ أختها أبناءَ ملوك، فحزَّ ذلك في نفسها وبدأت تشعر أنّها قد تكون مقصّرةً في حقِّ أبنائها وتفكرُ فيما كانت أختها تُردّدهُ لها عن القمح.

وفي أحدِ الأيام وهي تمشي بين أشجار الياسمين وتستمع إلى عزف زوجها وهو جالسٌ إلى الشجيرة القديمة شعرت أنّها لا بدّ أن تستكفي من شذا الياسمين والعزف ومن حلمها القديم، فاتجهت إلى زوجها وأخبرته أنّها تريد أن تُزيل شجيرات الياسمين من الحقل لتزرع القمح. شهق زوجها غير مُصدّقٍ ولكنّها أكّدت له أنّ هذا ما تريدهُ بعد أن ألمّها حالُ أبنائها وبعد أن شعرت بأنّها ترى في أعينهم توقّاً لأن يكونوا كأبناءِ خالتهم.

قالت له:

- لقد ظلمتكم كثيراً بحبّي للياسمين الذي فرضتهُ عليكم فأصبحتم جميعاً عُشاقاً للياسمين فقط لأنّني أحبّه.. وربما لو

- لم أُؤثّر فيكم لكنتم مثلَ أختي التي لا تأبهُ له.
تتهدّ زوجها غير مقتنعٍ وواصلت هي بلهجةٍ جادة:
- وقد فكّرت في الأمر كثيراً وشعرت أنّي إنما أحقق أحلامَ طفلةٍ في العاشرة.. فهذا كان حلمي عندئذٍ. وقد كبرت على كلّ شيءٍ إلا على هذا الحلم.. أخذت أتماهى معه حتّى أهدرت مالا لو استغلّته كما يجب لصنع لكم قصراً وألبسكم الديباج كما صنع لأختي.. والآن أصبحت أفكّر.. كيف أترك طفلةً في العاشرة تُخطط لي حياتي وحياةِ أسرتي؟ كيف أترك الطفلةَ التي كُنّتها تفتادني بحلمها الطفولي؟ أما أنّ للطفلةِ أن تكبر؟
- ولكنّه كان حلمك لكلِّ عمرك وليس لسنّ العاشرة فقط.. أخذت تنظرُ إلى ياسمينيةٍ في يدها وتلهو بها ثم قالت بصوتٍ كالهمس:
- ولكّني بدأتُهُ في العاشرةِ لذلك فهو حلم تلك الفتاةِ الصغيرةِ.. تلك الفتاةِ المحظوظة التي حظيت بما لم تحظُ به فتاةٌ أخرى لأنّها حققت حلمها بحذافيره وبأسطوريتهِ وبعجزونه.. وقد أن لتلك الفتاةِ الصغيرةِ أن تكبر.. هل تعتقدُ حقاً أنه من الصّوابِ أن نعيش عمرنا تحت سيطرةِ حلم حلمناه في طفولتنا؟
- لا، ولكن صدّقيني، إنّه ليس حلمَ تلك الطفلة التي كُنّتها

فقط.. ألا تزينَ جُموعِ الناسِ من جميعِ الأعمارِ التي
تتسمَّرُ ساعاتٍ طويلةٍ عندِ السورِ لثُمَّعٍ بهِ نظرُها؟ ألا
تظنَّينَ أنَّ هذهِ الغايةِ تداعِبُ أحلاماً لهم لم يستطيعوا
تحقيقها؟

- ولكنهم لن يشتروا الياسمين إلا بأبخس الأثمان.
- أنتِ تتحدَّثينَ عن "الأثمان"؟ يُخيلُ إليَّ أنَّ أختكِ هيَّ التي
تتحدَّثُ إليَّ الآنَ وليس أنتِ. عزيزتي، هناك أشياء كثيرة
قيِّمة لا تُقيِّمُ كما يجب، ليس هناك أرخصُ من الهواءِ إذ لا
ثمنَ له على الإطلاق، ولكنَّ قيمته لا تقدَّرُ بثمنٍ عندِ الإنسانِ
الذي يموت إذا ما حُبس عنه لحظات.. لا تُقيِّمي الأشياءِ
بأثمانها من النقود..
- لا تحاولِ إقناعي بشيءٍ لا معنى له.. أنتِ تعلمُ تماماً أنَّ
الياسمين لن يجلب لنا الملابس الفاخرة ولا الحليَّ ولا
أطياب المأكَل والمشرب، ولن يسكننا قصرًا مساحتُه رُبْع
مِساحةِ قصرِ أختي.
- ألم تسألني نفسك لماذا لم يقتصر أبوكِ على القمح ليصبحَ
في غنى أختك؟ هل كان أقلَّ نكاءً وخبرةً من أختكِ؟ لماذا
كان يزرعُ أشياء كثيرة؟ هل تعتقدين أنَّه قد فاتته ما لم يفت
أختكِ؟ لا طبعاً. لقد كان يُحبُّ أن يزرع الخضروات
والفواكه والحبوب وحتى الأشجار غير المثمرة. وكان

راضياً بما كان يجنيه عليه حقله من مال...
وكنتم تحيون حياةً متوسطةً ليست أرفع مستوى بكثيرٍ مما
نحن عليه الآن كما أخبرتني. كان هذا ما يريد، التنوع.
والثراء هو ما تريده أختك، أما أنت فتريدين الياسمين..
تريدين الجمال.

- هذا ما كنتُ أريده، وليس ما أريده الآن.
أخذ يهزُّ رأسه أسفاً فتركته وذهبت إلى أبنائها فأخبرتهم بأنهم
سيرتدون أجملَ الملابس ويأكلون أجودَ الطعام كأبناء خالتهم
تماماً لأنها... ستحوّل غابة الياسمين إلى حقل قمح وحبوب..
شقق الأبناء أيضاً وأخبروها أنهم يُفضّلون حقل الياسمين على
أيّ شيءٍ آخر.. أخبرها كلُّ منهم بحكاية جميلة له مع الحقل إلا
أنها تجاهلت حكاياتهم وأخبرتهم أنها تعلم ما فيه مصلحتهم أكثر
منهم. ولم يستطيعوا مع والدهم إثناءها عن عزمها لأنها أصبحت
تكره أن ترى أسرتها في حالٍ أقلُّ بكثيرٍ من حالِ أسرة أختها.

وأصبحت لا تستمتع بالتجوال في الأمسيات بين الياسمين ولا
بموسيقى الناي حتى أنّ زوجها توقّف تماماً عن العزف هناك،
وأصبحت هي تحسب كم من النفود سيكفّها تحويل حقل الياسمين
إلى حقل قمح، وكم من الزمن سيستغرق الأمر قبل أن ترى لديها
نصف ما لدى أختها من مال. وكانت تُفكر كثيراً بعد تلك

الحسابات وتنتهّد في قَلّةِ صبر، ولولا أن عمّالها يتولّون العناية
بالحقل لَدَبَلُ كُلُّ الياسمين ومات.

وعندما اكتملت حساباتها ذهبت في إحدى الأمسيات إلى
الحقل لتُلقِي عليه نظرةً أخيرةً قبل أن تقتلَعِ كُلَّ ما فيه. دخلتهُ بعد
غيابِ دامِ عِدّةِ أشهرٍ فبهرها مرأه من جديدٍ وكأنّها تراه أولَ مرّةٍ.
رأت فيه السحرَ الَّذِي كانت تحلم به. رأت تلاله الخضرَاءِ
المُرْقَشَةَ بالأبيض ووديانه وقلاعِهِ وقصوره الصغيرةَ الحاملةَ
التي صنعتها من أعوادِ الخشبِ ثم أجرت عليها أفرعَ الياسمين.
وأطار شذا الياسمين لُبّها فتنهّدت وامتعضت مرّةً أخرى لأنّها
كادت تتردّدُ بعد أن حسمت أمرها.

أغمضت عينيها لئلا يؤثر فيها مرأه وأخذت تمشي فجعلها
الشذا تتخيّلُ أنّها في غابةٍ أكثرَ جمالاً مما هي في الواقع وفي
عالمٍ أكثرَ سحراً، فسدّت أنفها وجلست على ربوةٍ بين بعض
الشجيرات فأنتها الأنغامُ القديمةُ التي كانت تسمعها آتيةً من
داخلها عندما تكونُ بين زُهيرات الياسمين. فتحت عينيها وهبّت
غاضبةً لثوبخ زوجها ظناً منها أنّه يحاول التأثير على رأيها
ولكنّه لم يكن في مكانه المعتاد. تلفتت وركضت في كل اتجاهٍ
ولكنّها لم تره. ركضت نحو السور الذي رآته خلفه أولَ مرّةٍ فلم
تجدّه هناك. لم يكن ذلك عزفُه. إنها الأنغام الحاملة التي يجلبها
المكان.

وقفت حَيْرِي والرياحُ الخفيفة تتلاعب بشعرها وشذا الياسمين
يأتيها ثانيةً وثالثةً كلما هبَّت أنسامٌ جديدة وموسيقى الياسمين
تتوالى عليها مع الشذا تحكي حكاياتها القديمة. جلست حزينَةً لا
تدري ما تفعل. هل تُخرب جنَّتُها التي صنعتها بنفسها أم تُبقي
عليها وتبقى هي على حالها الذي أصبحت تكرهُه كلِّما رأت أبناء
أختها يرفلون بأثوابهم البهية وينعمون بكل ما يريدون. في النهاية
تنقست بعمقٍ وعقدت النيةَ على ألا تتراجع عن قرارها بزراعة
الحبوبِ مهما أغراها الياسمين بالإبقاء عليه. عندئذٍ شعرت
بالراحة فقررت أن تتعامل مع الحقل كما كانت تفعل في السابق
على سبيل توديعه لأنها ستفقدُه قريباً إذ أنها كانت جادةً في
قرارها بأنه لا تراجعَ بعد الآن.

أخذت تمشي حافية القدمين على الحشائش اللينة بين
شجيرات الياسمين التي تبدو وكأنها بلا نهاية، وتمشي بين
الرّوابي وفوقها وترقصُ على الأنغام التي لا يسمعها أحدٌ غيرها.
عندما اعتلت إحدى الرّبواتِ العاليةِ أخذت تجُولُ بناظريها في
أرجاء حقلها فرأت جُموعاً من النَّاس تصطفُ عند أسوارها
البعيدة لتتأمل الحقل. لظالما أشعرها تراخُمُ الناس حول أسوارها
من أجل رؤية غابة الياسمين بالزهو والبهجة، وهو ما يزال
يُشعرها بذلك وما زال ينتزع منها ابتسامَةً فخورة، إلا أن
ابتسامتها هذه المرّة لم تكن سعيدة. تعلم أن غابة الياسمين

الأسطورية هذه موشكةٌ على الرحيل لتحل محلها سنابلُ القمح وربما غيره من الحبوب. لن ترى هذه الوجوه المظلة بفضول ودهشة بعد الآن، ولن ترى هذه الابتسامات التي يغمُرها الانبهار والإعجاب بسحر الياسمين ثانية.

هبطت من على الربوة العالية وجلست تحت إحدى الشجيرات. وأخذت تفكر.. كانت تريد أن تحلم بالثراء وبما ستوفره لأبنائها من أسباب الرخاء والسعادة ولكنها لم تستطع لأن المال أساساً لم يكن يعني لها الشيء الكثير. يجب أن تُغني للثراء ليصبح حلماً يجلب لها السرور والبهجة. أخذت تحاول استئشعار ما ستكون عليه من سعادة وهي ترتدي أثواب الحرير المطرزة بخيوط الذهب والفضة، وابتسمت وهي تتخيل ذلك ولكن ابتسامتها تجمّدت وهي تسمع أنغام الياسمين.. خُيل إليها أن الأنغام أصبحت أقلّ مرحاً.. تجاهلتها وحاولت أن تغني حلمها الجديد بالثراء وبالمعيشة البراقة كما كانت تغني حلمها الياسميني القديم ولكنها لم تتمكن من غناء أغنية واحدة.. حاولت افتعال شيء ما، جزء من أغنية.. كلمة.. حاولت كثيراً ولكنها لم تستطع.. عندئذٍ، وعندئذٍ فقط اكتشفت أن هناك أشياء لا تستطيع أن تغنيها.. صممت فعادت أنغام الياسمين... خيل إليها أنها تكاد تكلمها.

أخذت تفكّر.. هل يجب أن تكون ثرية كأختها؟ هل يجب أن يلبس أبناءها ما يلبسه أبناء أختها؟ هل يحتاج أطفالها حقاً إلى المعيشة المرفهة؟

عادت غير متأكدة من أن القصر والحريير والمجوهرات ستسعد أبناءها، فالسعادة لا يضمئها القصر والحريير والنفائس. أما عن نفسها فقد أصبحت تعلم أنّها لن تُمتعها المعيشة المرفهة كما يمتعها الياسمين لأنها لم تستطع أن تجعلها تغني كما يجعلها الياسمين تفعل.

هناك بيوت الأحجار وهناك أبيات الشعري.. هناك الصففة التجارية وهناك الأغنية، هناك الخبز وهناك الياسمين.. أبيات الحَجَر لا تُلغي أبيات الشَّعر. وفي القصور والبيوت تُروى الحكايات ويُطرب للأغاني.. الأشياء المادية في الحياة والمصنوعة من الحجر والحديد والذهب لم تُغن قط عن الأشياء المصنوعة من الكلمات والموسيقى والشذا.. الحياة يحفظها الخبز ولكن أيضاً يعوزها جمال الياسمين. الذين يحبون أن يخبزوا فقط ربما كانوا يستطيعون أن يستخلصوا النقود من كل الأيدي حتى التي لا تكاد تمتلكها، ولكن لو خبز الناس جميعاً فمن للياسمين؟

نشرت ذراعها في الهواء وابتسمت للتلال الخضراء المرقشة بالأبيض وللعطر السحري الذي يكاد يسكرها، وفي الحال وجدت نفسها تغني أحلام طفولتها وشبابها والقادم من

عمرها على أنغام شذا الياسمين، تغني أحلاماً كثيرةً تنساب
كالأنسام العذبة التي تداعب زهيرات الياسمين.. أحلاماً كلّها
خلافة.. كلّها ساحرة.. كلّها شذيفة.. كلّها بيضاء كالياسمين.

Delakhalifa.com